باب المناظرة والمراسلة

المامة

بكتاب تاريخ العرب قبل الاسلام (*

﴿لحضرة الفاضل جرجي افندي زيدان﴾

عرف الناس في مصر من حضرة الفاضل جرجي افندي زيدان معلما فمترجما فصحافيا ففيلسوفا لغويا فنسابة فروائيا مبتدعا فمتفرسا فمؤرخا خياليا قصاصا . ثم هم يستقبلون منه الآن مؤرخا اسلاميا محققا . ولا ندري ما يعرف منه اهل سورية قبل هجرته الى مصر . كل هذه صفات فاضلة ومواهب جليلة قلما يخلص بعضها لافذاذ العلماء ونوابغ الرجال . وهي بمجموعها لحضرته أفادت من لا يحصى عددهم من قراء العربية ولا سيما المسيحيين منهم وعلماء الشرقيات من الاوربيين وغيرهم ممن لا يحبون مطالعة الكتب العربية أو لا يستفيدون منها لو لم تشكل بالاشكال التي رسمها جرجي افندي زيدان لمؤلفاته العديدة

كان هذا الفاضل يؤلف الكتب الروائية ويأتي فيها بالممكن والمستحيل والمستملح والمستنكر فكنا لا نتعرض لها بمسخ أو نسخ لعلمنا ان الذي قاده الى هذه المواقف هو استرسال الخيال وهو قد يفضي بصاحبه في النثر الى مثل ما يفضي به في الشعر فيكون أعذبه أكذبه ، ولاعتقادنا ان نفعها اكبر من اثمها ، وان الكتب العربية الصحيحة لا تزال بعد منتشرة في جميع أرجاء العالم ناطقة ببيان الغث من السمين والصحيح من الباطل ، على انه ما من كتاب وضعه بشر الا وكان فيه لهوى النفس والسخائم الدينية والعصبية الجنسية بله الخطأ والغفلة أثر أي أثر ، الا ماشذ

*) بقلم الشيخ احمد الاسكندري

وندر، فلما قرأت تقريظ حضرة الفاضل (المغربي) أحد محرري المؤيد لكتاب (تاريخ العرب قبل الاسلام) وهو آخر ما أخرج للناس بعد من كتب مولفنا المذكور وجدته قد ملأ ما يقرب من صفحة من صفحات المؤيد بعبارات الاطراء والتهويل والاعجاب والاغراب مما لو قبله القارئ لم يشك ان العرب خلقت خلقا جديدا أو ان تاريخ جاهليتها الاولى المقبور في بطون القدم قد نبشه المؤلف من ناووسه، فرابني قوله — والمبالغة تريب — ولم أر الامر يخرج عن إحدى خصال ثلاث، إما أن يكون قرظه ولم يقرأه كعادة أكثر محرري الصحف لضيق وقتهم، وإما أن يكون قرأه وصانع المؤلف لصداقة بينهما — وللصداقة حقوق — وإما أن يكون المؤلف قد وفق حقيقة للعثور على الضالة المنشودة والحلقة المفقودة من تاريخ جاهلية العرب، وما ذلك بعزيز على نشاط الرجل واجتهاده

ولما كنت ممن عني بهذا الموضوع عناية شديدة قرأت الكتاب بالهاف أخذ فتناقص بتناقص أوراق الكتاب فاذا به والحق أقول خير مؤلفات الرجل ولا انكر انه أفادني بعض فوائد ثمينة هاجت في نفسي ميلا الى نقده ولا ينقد الا كل ذي قيمة

يقع كتاب (تاريخ العرب قبل الاسلام) في ٢٥٠ صفحة كتب في ٣٠ صفحة منها مقدمة طويلة ليست من موضوع الكتاب في شيء وانما ذكر فيها كعادته في كتبه غموض تاريخ العرب وصعوبة التأليف فيه أو تعذره الا على من كان من أهل الجسارة أو الاطلاع الواسع والمعرفة بكثير من اللغات الحية والميتة والبحث والتنقيب في آثار الامم الخالية ثم ذكر شبه فهرس مطول ثم تمهيدا في مصادر تاريخ العرب وهي الكتب العربية وغير العربية من اليونانية والرومانية والنقوش الاثرية وقد تحامل على العرب فيها ما شاء ان يتحامل مما يظن معه قارئه ابتداء ان أكثر مصادر الكتاب أثرية أو يونانية قديمة أو أوربية حديثة لكثرة أسماء الكتب والرحلات التي ذكرها وهي نحو السبعين كتابا غير الموسوعات والمعاجم الكبرى التاريخية والاثرية وغيرها (كما يقول) فاذا هو قرأ الكتاب وجد ان نحو أربعة اخماسه عربي المصدر وان لا ذكر لهذه الكتب والمعاجم إلا نزرا يسيرا في ذيل

الكتاب يعرف ذلك من اطلع على الكتاب بامعان ومن رأيي ان هذه المقدمة تجارية أكثر منها علمية

فائدة المؤرخ من الكتاب

إن الذي لا يعرف اللغات الاوربية يستفيد من الكتاب

أولا — ما ترجمه المؤلف من آراء بعض قدماء اليونان في الجغرافية العربية غثة كانت أو سمينة

ثانيا — ما ترجمه من آراء بعض سياح الاوربيين في شمال جزيرة العرب وجنوبها على قلة في ذلك

ثالثا — بعض الصور والرسوم والخطوط والنقود التي نقلها من رحلات هؤلاء السياح مثل رسم سد مأرب و بعض قصور اليمن وهيكل تدمر و بطرا

رابعا — معرفة كيف كان يختلف اللسان النبطي والتدمري عن العربي الفصيح وهي فوائد تشكر للمؤلف اذاعتها في كتاب مستقل

الامور التي تؤخذ على المؤلف

الامر الاول — تردده أو إنكاره بعض الحقائق التاريخية البديهية في موضع وتشبثه بتحقيق بعض الظنون والتخرصات في موضع آخر اعتمادا على أوهام وتخيلات قامت بذهنه فقط

فمثال الاول — انه عند ما أراد التكلم على تقسيم عرب أواسط الجزيرة وشماليها الى قحطانيين (يمانين) وعدنانيين مال الى انكار هذا التقسيم ورأى رأيا عجيبا لا يخطر على بال مؤرخ ولا قارئ وهو ان هؤلاء العرب كلهم عدنانيون فعندهان مثل طي وكندة وغلم وجذام ومذحج وهمدان ومازن والأوس والخزرج عدنانيون . ونورد هنا ماقاله في ذلك (صفحة ١٨٢ و١٨٣) قال :

«وكل هذه البطون أوالقبائل قدرأيت انها ترجع بانسابها الى كهلان بن سبا أي انهم قحطانية — ذلك ماأجمع عليه العرب ولكن لنا رأيا في هذا الاجماع لايخلو ذكره من فائدة

« قد رأيت في ما ذكرناه عن الفروق بين القحطانية والعدنانية ان لكل منهما خصائص في اللغة والاجتماع والعادات والدين واسماء الاعلام . واذا تدبرت أحوال هذه الدول من غسان ولخم وكندة رأيتها تنطبق على العدنانية أكثر مما (كذا) على القحطانية من حيث اللغة فاننا لم نر في كلامهم وأقوالهم ما يدل على انهم كانوا يتكلمون لغة حمير بل لغة العدنانية أو عرب الشمال في الطور الثاني . وقد يقال انهم اقتبسوا لغة الوسط الذي انتقلوا اليه ولكنا نستبعد ذلك لان الغالب في اقتباس لغة الآخرين ان يقع من الضعيف نحو القوي — فلو كان أولئك القوم قادمين من بلاد اليمن لحافظوا على لسانهم وسائر عاداتهم لانهم كانوا يومئذ ارفع منزلة من بدو الشمال وكان هؤلاء ينظرون الى اليمنية نظرهم الى أهل الدولة ويعدونهم الملوك كما ينظر البدوي الامي الى المتمدنين أصحاب الصولة والعلم . وزد على ذلك ان اليمنية كانوا يكتبون بالحرف المسند ولا نرى لهذا الحرف ذكرا في اخبارهم ولا أثرا في اطلالهم

« وقد علمت ان الكهلانيين أهل حضارة كما رأيت في ما ذكرناه من حديث سيل العرم وكيف ان الكهلانيين كانوا أهل حدائق وقصور باعوها وانتقلوا . فلو صح ذلك لاختاروا الاقامة في بلد آخر من اليمن غير مأرب وما جاورها لان السيل لم يخرب الا جزءا صغيرا من اليمن . فلم يكونوا يعدمون مكانا يقيمون فيه كما كان يقيم سواهم من قبائل الحضر واخوانهم الحميريون ما زالوا أهل دولة وعمران وظلوا في رغد ورخاء وسعة من العيش الى ظهور الاسلام

« فما كان أغنى الكهلانيين عن الرحلة الى بادية الشام أو العراق والرجوع الى البداوة وهي شاقة على من تعود الحضارة والرخاء

« واعتبر ذلك في معبوداتهم فانها من معبودات عرب الشمال أو العدنانية ولم نجد عندهم ما يميزهم عن هؤلاء من هذا القبيل . ولو كانوا من عرب اليمن لوجدنا بين معبوداتهم اسم عشتار أو ايل أو نحوها

« وهكذا يقال في اسمائهم وليس فيها رائحة الاعلام السبأية أو المعينية بل هي مثل اسماء سائر عرب الشمال ولا سيما الذين سكنوا مشارف الشام قبلهم كالانباط

ونحوهم ومنها الحارث وثعلبة وجبلة والنعمان وغيرها . ولا يعترض بما ذكره العرب بين اسماء الملوك حمير من أمثال هذه فان أكثرها مبدل بأسماء شمالية وانما عمدتنا في ما ذكرناه على الاسماء التي وقفوا عليها في الآثار المنقوشة

«فلا دليل على قحطانية هذه الامم إلا أقوال النسابين وهي أضعف من ان يعول عليها في هذا الشأن لاحتمال ان تكون تلك الامم قد انتحلت الانتساب الى عرب اليمن التماسا للفخر بين قوم لا يعرفونهم ولا سيما بعد ان تعربوا من الروم أو الفرس وصاروا من عمالهم» اهـ

ونقول في دحض هذه الاقوال :

(١) أما عدم الاختلاف في اللغة فان الاختلاف فيها إما أن يكون في الاصول وإما في الفروع أما الاصول فليس بينها خلاف جوهري لأن لغات العرب كلها من اصل واحد كما اعترفت به حضرته وأما الفروع فلم ينكر احد سواه وقوع الاختلاف فيها حتى في لغات القبائل التي لم تخرج من اليمن فالاختلاف في الاعراب والتصريف والقلب والاعلال والابدال مملوء به كتب النحو والصرف والاختلافات في معاني الكلمات المفردة لم تهملها كتب اللغة والادب ولذلك وقائع وحكايات جر الخطأ في التفاهم بسببها الى ازهاق الارواح كما في حكاية قتل مالك بن نويرة وقومه وكلنا يعرف ماهي العجعجة والشنشنة والاستنطاء في لغات اليمانية

ولو كان بعض الاتفاق في اللغات بين القبائل المختلفة يجعلها من اصل واحد لقد كان المحتم على حضرة المؤرخ أن تقول ان قبائل حمير التي لم تخرج من اليمن عدنانية أيضا لاتحادها مع العدنانيين في الاصول واختلافها عنها في بعض الفروع إبان ظهور الاسلام وقد حفظ لنا التاريخ الصحيح وكتب السنة الصحيحة كثيرا من مقالات وفود الحميريين على النبي صلى الله عليه وسلم وهي لا تختلف عن العدنانية الا في معاني بعض المفردات . وانما حدث هذا التقارب في اللهجة واللغة لتقاربهم في البيئة (الوسط) والمجامع والاسواق التي كانوا يقيمونها . وأما أن الضعيف يقتبس لغة القوي وزعمه ان اليمانين كانوا هم الاقوياء الغالبين فذلك على فرض تسليمه

لا ينهض حجة على اثبات دعواه لما كانت عليه العرب في القرون القريبة من ظهور الاسلام من التقارب في جميع الاحوال حتى قبائل حمير نفسها بعد غلبة الحبشة والفرس عليها

(٣) واما انه لم يوجد أثر للحرف المسند من جهات الشمال فذلك قد كذبه بنفسه في موضع آخر عند تكلمه على عرب الصفا حيث أتى بهذا العنوان لامم سبئية في الشمال وذكر تحت هذا العنوان كلاما كثيراً عن ان أمم حمير انتقلت إلى الشمال ووجد لها أنواع من الخط المسند كالقلم الصفوي والثمودي واللحياني وقال ان الباحثين لا يزالون في أول البحث

(٤) أما أنه لا حامل للقحطانيين على الهجرة من بلادهم وجنانهم وقصورهم الى الصحارى المجدبة بلا سبب عظيم وان سيل العرم لا يكفي لتفرقهم أيادي سبا فان الاسباب الحقيقية لهذه الهجرة لا تزال مجهولة كأسباب هجرة أكثر الامم القديمة وانما كان من أهمها حادثة سيل العرم مضافة الى منازعات وحروب أهلية أو مجاعات أو ان الارض قد ضاقت عليهم فالتمسوا غيرها من بلاد الله ولم تكن وجهتهم في رحلتهم هذه القفار بل كانت ريف العراق ومشارف الشام ولا تنكر حضرة المؤرخ عظم دولتهم في الحيرة والانبار وفي سورية وفلسطين فلقد احتلوا في الاولى جميع الاراضي التي بين دجلة والفرات حتى سميت العراق العربي وفي الثانية أكثر بلاد فلسطين وسورية وحلب ولا شك ان هذه كانت اخصب من بلادهم وبقية اليمانيين الذين سكنوا البدو منهم فانما تراجعوا اليه بعد منافسات مع بني عمهم في الشمال مع بعد عهدهم باليمن وخصبه واما اكتفاء المؤرخين بذكر حادثة سيل العرم فذلك وهم سرى اليهم من تعقيب ذكر قصة السيل في القرآن الكريم بقوله تعالى (وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق) فان الظاهر من الآية ان التمزيق سببه ظلم أنفسهم والظلم يأتي بأسباب كثيرة اعتدائية لا بسبب خارجي فجائي لا دخل لهم فيه مثل انفجار السد

(٥) واما دعوى اتحادهم في المعبودات فلا نسلم انها كانت عدنانية بل كانت خليطا من كل الاديان فقد عبد كثير من العدنانيين الشمس والقمر والكواكب

وهي من معبودات أهل الجنوب كما تقدم وتنصر أهل الجنوب واليهودية والنصرانية من أديان أهل الشمال

(٥) واما توافق اسمائهم فذلك إرث من طبيعة الجوار والبيئة وتمازجهم في كل شيء كما يسمي الاقباط الآن انفسهم باسماء عربية وتركية بعد ما زالت سيطرة العرب والترك وكما يسمي الترك أنفسهم باسماء عربية مع انهم هم الغالبون للعرب وكما يسمي السوريون أنفسهم بأسماء انجليزية وفرنسية على ان هذا المؤرخ الذي أنكر في غير موضع من كتابه وجود اسماء عدنانية بين اسماء الحميريين نقض كلامه في صفحة (١٥٩) حيث نقل عن غلازر الالماني احد الآثريين الذين وجدهما في اطلال السد وهذا كتبه ابرهة قبيل ظهور الاسلام وفيه يذكر الاقيال الذين قبرهم أو ولاهم عنه مثل يزيد بن كبشن ومرة وثمامة وحنش ومرثد وكل هذه اسماء عدنانية كما ان معديكرب الزبيدي إسمه حميري وهو من القبائل التي ينكر المؤرخ حميريتها

وأما الادلة الوجودية على ان القبائل المذكورة قحطانية فأكثر من ان نأتي بها جميعها في هذه المقالة وهي بالغة بمراجعتها الى أفق البديهيات

فمنها اعتراف جميع هذه القبائل بأنها يمانية حتى بعد ان ظهرت مضر عليهم في وقائع عديدة وبعد ان خضعوا لمضريين بعد الاسلام وتعصب المضرية واليمانية في الفتن التي وقعت في الصدر الاول غصت به كتب التاريخ والادب

ومنها اجماع النسابين والمؤرخين باعتراف حضرته على ان القبائل المذكورة قحطانية

ومنها ما ثبت في الاحاديث الصحيحة مما يشير الى هذه التفرقة. ولو أردنا ذكر الشواهد التاريخية من الوقائع والمفاخرات وقصائد الشعر من الحماسة والمدح والهجاء وجميع الاحاديث النبوية لاثبات ان هذه القبائل قحطانية لوضعنا في ذلك كتابا يزيد عن كتاب جرجي افندي زيدان اضعافا (لها بقية)

﴿ كلمات في النسخ والتواتر وأخبار الآحاد والسنة ﴾

رد على الاستاذ الفاضل الشيخ صالح اليافعي (*

(الكلمة الثالثة) — في بيان ما استشكله الاستاذ الشيخ اليافعي في تفسيرنا للآيات التي يستدلون بها على النسخ في القرآن — ان استدلالهم على النسخ بقوله تعالى (ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها) قد فنده الاستاذ الامام رحمه الله تعالى في تفسيره كما نقلنا ملخصه عنه في مقالة الناسخ والمنسوخ وقلنا ان المراد بالآية هنا هي العلامة والدليل على النبوة كالمعجزة ونحوها ومعنى نسخها ترك العمل بها في التأييد وعدم إظهارها مرة أخرى لتصديق النبي وذلك على حد قوله تعالى في آية أخرى في هذا المعنى (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية وما كان لرسول أن يأتي بآية الا باذن الله لكل أجل كتاب) أي لكل زمن حال مكتوب عليهم ومقدر لهم لا يناسبهم غيره (يمحو الله ما يشاء) من الآيات السابقة وغيرها فلا يعيدها مرة أخرى للامم اللاحقة لعدم مناسبتها لحالهم فهو كقوله هناك (ما ننسخ) فالمجرد النسخ في الآيتين بمعنى واحد (ويثبت) ما يشاء مما يرى الحكمة في إبقائه أو إعادته (وعنده أم الكتاب) أي العلم التام بكل حال وما يناسبه: فالسياق في هاتين الآيتين يدل على ما قلناه فيهما وهما مفسرتان بعضهما لبعض

يقول الاستاذ الفاضل: لو كان تفسيرنا لهذه الآية صحيحا لكان التقدير فيها: ما ننسخ من مثل آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها. ونقول نعم فليكن كذلك فهو كقوله تعالى (وما منعنا أن نرسل بالآيات الا ان كذب بها الاولون) فان تقديره: وما منعنا أن نرسل بالآيات التي تقترحونها إلا أن كذب بمثلها الاولون وقوله تعالى (نأت بخير منها أو مثلها) فانما المثلية في قوة الحجة والاقناع لا في كنهها وماهيتها فأي عيب يراه الاستاذ في هذا المعنى وكيف يفسر هذه الآيات وآية (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك) الخ الآية التي سبق ذكرها؟؟

---

*) للدكتور محمد توفيق افندي صدقي

فكل آية من آيات الانبياء السابقين التي نسيها الناس أو لم يظهرها الله تعالى مرة ثانية على يد النبي صلى الله عليه وسلم قد أتى بمثلها في الاقناع والهداية أو بخير منها في ذلك فأظهر تعالى على يده معجزات كثيرة وأنزل عليه آيات الكتاب العزيز فهو المعجزة العظمى الباقية وآية الآيات الكبرى الخالدة التي رآها الناس في كل زمان ومكان ويقدرها العقلاء قدرها فانها لا تشتبه بسحر ولا بشعوذة أو غش أو تدليس فهي خير من جميع المعجزات التي سبقتها وأعم فائدة وأتم دليلا وأكثر مناسبة لحال البشر وقد ظهر ذلك الآن أتم الظهور فترى العلماء اليوم في أوربا وكثير من البلاد المتمدنة صاروا يفرون من ذكر المعجزات الحسية ويودون لو أوتي أنبياؤهم معجزات غيرها علمية عقلية أدبية أي كمعجزة القرآن الشريف . فلو لم يؤت صلى الله عليه وسلم سواه لكفى ولذلك قال تعالى (أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون) فما بالك وقد أعطي معجزات كثيرات غيره كما تواترت به الاخبار

واعلم أن نظم الآية التي نحن بصدد تفسيرها لا يقبل أي معنى آخر سوى ما اخترناه فيها ولذلك ختمت بقوله تعالى (ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير) فلو كان المراد آيات الاحكام كما يقولون لقال : ألم تعلم أن الله عليم حكيم ، فانه أتم مناسبة وأشد ملاءمة لما يقولون ولما قال بعدها (ألم تعلم أن الله له ملك السموات والارض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ، ومن يتبدل الكفر بالايمان فقد ضل سواء السبيل) فقد سأل بنو اسرائيل موسى من قبل مقترحين آيات غير ما اراهم عنادا وكفرا (فقالوا أرنا الله جهرة) . فاذا كان تفسيرهم صحيحا فما مناسبة هذا الكلام هنا وما معناه ؟ ! وإذا كان المراد آيات الاحكام لا المعجزات فهل الله تعالى أتى بدل الآيات المنسوخة بآيات خير منها ؟ إن كان ذلك صحيحا فكيف نسخ كثير من أحكام القرآن بالسنة على قول بعضهم ؟ مثلا قالوا إن آية الوصية للوالدين والاقربين قد نسخت بحديث « ألا لا وصية لوارث » فلم لم يأت بدلها في القرآن ؟ وأين البدل

للآيات التي نسخ لفظها وحكمها معا كقوله : عشر رضعات معلومات يحرمن ، الذي نسخ على زعمهم بقوله (خمس رضعات معلومات) ثم نسخ لفظ هذا الاخير ولم يأت بدله ولا يزال حكمه باقيا كما في مذهب الشافعي وكذلك لم يأت بدل للفظ: الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة وغير ذلك كثير ! !

أما آية مناجاة الرسول التي فسرناها في مقالاتنا السابقة فنزيد على تفسيرنا لها أن قوله تعالى فيها (فان لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة) الخ معناه إن لم تفعلوا ماندتم إليه من تقديم الصدقات قبل مناجاة الرسول والحال أن الله قد رجع إليكم بالتخفيف والتسهيل فيما شرعه لكم فلم يعاملكم كما كان يعامل الامم السابقة ولم يعنتكم بشيء مما اوجبه عليكم فلذا ندبكم إلى هذا الامر ولم يجعله عليكم فرضا كما هي سنته في معاملتكم بالرأفة والرحمة فأقيموا الصلاة إلخ فقوله (وتاب الله عليكم) قد ورد هنا بمعنى الرجوع الى التخفيف والتسهيل على هذه الامة والعدول عن معاملتها كسابقيها لا بمعنى التجاوز عن السيئات وغفران الذنوب .وقد ورد بذلك المعنى أيضا في آية أخرى في سورة المزمل وهي قوله تعالى(علم أن لن تحصوه فتاب عليكم)أي رجع إليكم بالتخفيف ورفع عنكم مايشق عليكم وليس معناه في هاتين الآيتين العفو عن الذنوب إذ لا ذنب هنا صدر منهم

قال الاستاذ الفاضل الشيخ اليافعي منتقدا على تفسيرنا لآية (واذا بدلنا آية مكان آية) أن السياق لا يدل على أن هذا القول صدر من أهل الكتاب كما قلنا فانه لم يتقدم لهم ذكر في السورة . ونقول ان صدور هذا الكلام من أهل الكتاب لا ينافي أن غيرهم من العرب شاركهم في ترديده والموافقة عليه عنادا للنبي صلى الله عليه وسلم وتكذيبا له فلذلك وردت هذه الآية في سياق الكلام عن مشركي العرب فانهم وافقوا أهل الكتاب منهم في دعاويهم الباطلة وتعاونوا بهم على تكذيب النبي عليه السلام ولذلك كانوا يقولون تقليدا لهم في تكذيب القرآن(أضغاث احلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الاولون)فانهم لا يؤمنون برسل الاولين ولا يعرفونهم ولا يصدقون بآياتهم ولكنهم يرددون ما يلقيه لهم أهل الكتاب وإن خالف معتقداتهم مادام فيه تكذيب للنبي وإغاظة له ولذلك ترى في القرآن آيات

كثيرة أمثال هذه التكذيبات اليهودية أو النصرانية واردة في سياق الكلام مع مشركي العرب فانهم جميعا كانوا متضامنين ومتحدين بعضهم مع بعض على بغض النبي وتكذيبه وعرقلة مساعيه فهم - وان اختلفت أديانهم - أمة واحدة ويد واحدة على رسول الله . فمن أمثلة هذا التضامن والاتحاد في التكذيب قوله تعالى (وما قدروا الله حق قدره اذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء) ولما كان اليهود هم الموعزين الى المشركين بذلك عنادا لرسول الله وحقدا عليه ومكابرة له قال تعالى له (قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس) الآية وهي واردة في سياق الكلام مع مشركي العرب لسبب الذي ذكرناه وهو أنهم أمة واحدة ومتحدون على بغض الرسول وتكذيبه وتلقين بعضهم بعضا ضروبا من الشبهات والتشكيكات غير مبالين بمخالفتها لمعتقداتهم فلذا صح أن ينسب ما يقوله بعضهم لهم جميعا لاتباعهم له وتعويلهم عليه في تكذيب النبي صلى الله عليه وسلم وكذلك في جميع اللغات المعروفة ينسب عمل بعض أفراد الأمة إلى الامة جميعها خصوصا إذا رضيت به وأقرته وان اختلفوا عقيدة فما بالك إذا كانوا جميعا يأتون الشيء ويعملونه

ومن أمثلة ذلك أيضا قول المشركين (لولا أوتي مثل ما أوتي موسى) مع أنهم لا يؤمنون بموسى ولا بما جاء به وهو يدل على أنهم كانوا يقلدون اليهود تقليدا أعمى ويطيعونهم في جميع ما يوعزون به إليهم وإن نافى معتقداتهم كما قلنا إرضاء لهم واستجلابا لودهم ومعاونتهم لهم على الرسول . فكثير من مثل هذه الاقوال كان صادرا عن اليهود ثم تبعهم فيه المشركون وصاروا يرددونه عنهم فلذا اتبعوا اليهود في تكذيبهم النبي صلى الله عليه وسلم في قوله إن القرآن نسخ بعض شرائع التوراة كالسبت وتحريم بعض اللحوم . ولذلك جاءت آية (وإذا بدلنا آية مكان آية) في سياق الكلام مع المشركين مع أن القول صدر أولا من أهل الكتاب وقلدهم فيه المشركون تقليدا أعمى كما قلدوهم في غيره مما سبق بيانه وجاءت به الآيات في سياق الكلام معهم

هذا وإن الاستاذ الفاضل قد استنكر جعل قوله تعالى (إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولهم عذاب ألم) وصفا لليهود وفاته أن الله تعالى قد وصفهم

بمثله في آيات أخرى كثيرة كقوله (وكيف يحكمونك وعندهم التوراة — إلى قوله — وما أولئك بالمؤمنين) وقوله (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين)

(الكلمة الرابعة) — بيان أسباب أن أحاديث الآحاد لا تفيد اليقين

أولا — قد يكون الراوي كذوبا لكنه منافق ومتظاهر بالصلاح والتقوى لسبب ما من الاسباب التي تحمل الناس على الكذب وهي كثيرة معروفة فيفتر به بعض الناس لعدم معرفتهم عنه شيئا يجرحه لشدة احتراسه وتستره . وقد يكون بعض المحدثين مؤمنا صادقا مخلصا صالحا لكنه ينخدع لظاهر هؤلاء المنافقين فيأخذ الحديث عنهم ويصدقهم وهم كاذبون اذ كلما اشتد صلاح المرء وخوفه من الله ظن أن أمثاله كثيرون وكثر انخداعه بأعمال المنافقين وظواهرهم وتجنب إساءة الظن والتجسس لشدة ورعه وتقواه أو بساطته وسذاجته في بعض الاحوال . وكثرة الكذابين وكثرة ما يضعونه من الاحاديث يشوش على الناقدين الباحثين عملهم ويوقعهم في الارتباك والخطأ كثيرا فيقبلون أحيانا ماليس صحيحا ويرفضون ما هو صحيح . ولا يلزم من كون المرء غير صالح أو عرف عنه بعض الكذب أن جميع ما يقوله كذب وقد يكون منفردا بحديث فلا يقبل منه لذلك مع أنه قد يكون صادقا فيه . وقد يكون المرء صالحا صادقا ولكنه يضطر في بعض الاحيان الى أن يكذب ولو واحدة فلا يسلم ما يؤخذ عنه من ان يكون فيه بعض الكذب او المبالغة

ثانيا — قد يكون بعض الرواة من الصالحين الصادقين المخلصين ولكنه يخطىء المراد ولا يفهم الحقيقة فيحدث كما فهم معتقدا انه صحيح . والتحديث بالمعنى كان عندهم جائزا . وقد ينسى شيئا مما سمعه ويقع في الغلط بسبب ذلك بدون أن يشعر به . ولذلك قال عمران بن حصين رضي الله عنه « والله إن كنت لأرى أني لو شئت لحدثت عن رسول الله يومين متتابعين ولكن بطأني عن ذلك أن رجالا من اصحاب رسول الله سمعوا كما سمعت وشهدوا كما شهدت ويحدثون أحاديث ما هي كما يقولون وأخاف أن يشبه لي كما شبه لهم » كما رواه ابن قتيبة في كتابه تأويل مختلف الحديث

ثالثا — إثبات عدالة رجال الاسانيد كثيرا ما تكون مبنية على شهادة شاهد أو رواية واحد فكأنهم يثبتون صحة الروايات بعدالة الرجال ثم يثبتون عدالة الرجال بالروايات ولا يخفى على أحد فساد ذلك فان ما يقال في رجال الأسانيد يقال مثله جرحا وتعديلا فيمن يشهد لهم ويوثقهم وربما أدانا ذلك إلى التسلسل أو الدور في البرهان

رابعا — أكثر الاحاديث والروايات مقتضبة فلا يعرف المقام الذي قيلت فيه ولا مناسباتها ومن المعلوم أن الاقوال إذا لم تعرف الظروف التي قيلت فيها قد تخرج عن المراد منها خروجا كليا أو جزئيا

خامسا — من المشاهد في جميع الاجيال وفي جميع الامم أن حفظ الاحاديث إذا كانت طويلة أو كثيرة بدون تحريف في ألفاظها أو معانيها ولا تبديل ولا زيادة ولا نقصا عسير جدا على الناس إلا من شذ وقليل هو وخصوصا إذا ألقيت مرة واحدة . ولذلك جزم بعضهم بأن من ادعى نقل الشيء كما هو بحروفه في مثل هذه الاحوال فهو مفتر كذاب فالنقل في أغلب هذه الاحوال هو تقريبي ولا يخفى ما ينشأ من مثل هذا النقل من الافتراآت والاختلافات والاكاذيب فاذا امتاز بعض الناس بهذه المقدرة فليس جميع الرواة ممن امتازوا بهذه المزية الشاذة

سادسا — قبل زمن تدوين الاحاديث كان جل رواتها إن لم نقل كلهم لا يكتبون الحديث ولا يعتمدون فيها الا على ذاكرتهم وقد سبق لنا كتابات طويلة في هذا الموضوع في المنار ومجلة الحياة وجريدة الدستور وقد أيدنا فيها الاستاذ الكبير والعلامة المحقق صاحب المنار الاغر . ومن اعتمد على ذاكرته فقط لا نبرئه من الخطأ والنسيان في جميع الاحوال مهما كان

هذا شيء مما يقال في روايات الآحاد فهي عندنا لا تفيد اليقين لطروء مثل هذه الاحتمالات عليها وبذلك قال أيضا الجمهور وان أراد أن ينكر ذلك الاستاذ اليافعي زاعما أنها تفيد اليقين

واذا كانت هذه الاحتمالات مما يرد على أحاديث المسلمين ورواياتهم فما يرد

على أحاديث غيرهم أشد وأقوى وأكثر فانه لم يعرف عن أي أمة مثل ما عرف عن الامة الاسلامية من العناية والتمحيص في الروايات والنقد والبحث في رجال الحديث ولم يكن يخطر على بال غيرهم شيء من مثل ذلك

ولا خوف على الدين الاسلامي المتين من هذه المطاعن التي أوردناها على روايات الآحاد فان حجته ناهضة بالمتواتر فيه والمجمع عليه فليهدأ المسلمون بالا

(الكلمة الخامسة) — في ذكر شيء مما خالفوا فيه القرآن لاجل الحديث

قال الله تعالى (سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون الا الظن وان أنتم الا تخرصون) . في هذه الآية — وأمثالها في القرآن كثير — يذم الله تعالى اتباع الظن والقول في دين الله بغير علم أي بغير ما يفيد اليقين وهي واردة في سياق الكلام مع من حرموا أشياء ليس عندهم دليل على أن الله حرمها عليهم . وقال أيضا قبل ذلك بقليل (وان تطع أكثر من في الارض يضلوك عن سبيل الله ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون — الى قوله — وان كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم إن ربك هو أعلم بالمعتدين) ومنه ترى أن العمل بالظن في شريعة الله غير جائز اللهم إلا اذا اضطررنا إليه كما في بعض الاحكام القضائية بناء على قاعدة : الضرورات تبيح المحظورات المؤيدة بالكتاب والسنة وإلا فانه محرم على الانسان أن يحل شيئا أو يحرمه لدليل ظني فما بالك بمن يعارض القطعي بالظني ؟ لا شك أنه يكون مرتكبا لاثم كبير . وقد أقر الاستاذ الفاضل الشيخ اليافعي بأن الظن إنما يذم إذا عارضنا به الأمر القطعي . يقول ذلك وقد غاب عنه أنه هو ومن على مذهبه كثيرا ما عارضوا نصوص القرآن الشريف الصريحة وخالفوها لأجل أحاديث الآحاد وهي لاشك ظنية كما عليه الجمهور . وإليك بعض الامثلة على ذلك : —

(١) خالفوا قوله تعالى (كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصية للوالدين والاقربين بالمعروف حقا على المتقين) الآيات لحديث « ألا لا وصية لوارث »

(٢) حرموا أكل الحمر الاهلية التي كانت تأكلها العرب كثيرا لما رووه من أن النبي صلى الله عليه وسلم حرمها مع أن القرآن الشريف يقول (قل لا أجد فيما أوحي الي محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة) الآية . ويقول (إنما حرم عليكم الميتة والدم) الآية ونحوها كثير

(٣) قالوا بحرمة استعمال الذهب والفضة والحرير للاحاديث التي رووها والقرآن يقول (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق؟ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة) فهي للمؤمنين يتمتعون بها في الدنيا وستخلص لهم وحدهم يوم القيامة فيحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير

(٤) حرموا أن تنكح المرأة على عمتها أو خالتها للحديث وخالفوا قوله تعالى (وأحل لكم ماوراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين) بعد أن ذكر سائر المحرمات وليس من بينهن المرأة على عمتها أو خالتها

(٥) أوجبوا القتل مطلقا على من ارتد عن الاسلام للحديث ، والقرآن يقول (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ـ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر)

فهذه بعض أمثلة مما عارضوا فيه القطعي بالظني وهو مما نكرهه ونذمه وقد ذمه الله تعالى في كتابه العزيز كما أقر به الاستاذ المناظر وإذا تتبعنا مذاهبهم وجدنا أمثلة غير ذلك كثيرة فهل يعقل أن الله يبيح للمسلمين ما كان يذم لاجله غيرهم في كتابه ؟ ! !

أنا لا أقول إن جميع هذه الاحاديث يجب ان تكون موضوعة ولكن لا يبعد أن بعضها كان كذلك والبعض الآخر يغلب الظن أن له أصلا صحيحا وأنه كان شريعة خاصة بأحوال خاصة وظروف مخصوصة في مبدأ الاسلام ولا تخفى حكمة ذلك على الناقد البصير إذا تأملها . وما جاء به القرآن هو الشرع العام لكل زمان ومكان ولذلك لم تأت أمثال هذه المسائل الخاصة فيه ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن تدوينها كي لا تكون خالدة بينهم كالقرآن الشريف ولتزول من بينهم بزوال علاها وأسبابها كما سنبينه ان شاء الله تعالى في رسالة لنا في هذه المسائل سنطبعها على

حدة لطولها . فالمسلمون اتبعوا كثيرا من مثل هذه الاحاديث مع اعترافهم بأنها ظنية ومخالفوا لاجلها القرآن الشريف مع أن ذلك مذموم فيه . وقد نسوا علل ما كان صحيحا منها ولم يراعوا أسبابها ولا الظروف التي قيلت فيها مع أن معرفة أسباب الاحاديث النبوية يحتاج إليها أكثر من الاحتياج إلى معرفة أسباب نزول القرآن الشريف ولذا لم يحسن المسلمون الجمع بين هذه الاحاديث و بين نصوص الكتاب العزيز . وهذه الاشياء هي مما ننكره عليهم وخصوصا لأن من الاحاديث التي يسلمونها ما يوجب الطعن في الكتاب المتواتر نفسه كما أشرنا إليه في الكلمة الاولى . فلولا تغاليهم في اعتبار الاحاديث لما وقعوا في كثير مما وقعوا فيه من الاختلافات والاشكالات والشبهات وغيرها حتى جعلوا اليسر عسرا والسهل لغزا

وإني لاعجب من أهل الحديث هل إذا سمعوا أي قول منسوب إلى رسول الله يلزمون أنفسهم بالبحث في رجال سنده وتواريخهم أم عليهم العمل به لمجرد نسبته إلى الرسول بدون بحث ولا تنقيب . أما الامر الثاني فهم لا يجوزونه لظهور فساده وأما الامر الاول فكأنه يجب على كل مسلم بمجرد ما سمع أقوالا منسوبة إلى رسول الله أن يفني حياته في معرفة أحوال رجالها والوقوف على أمورهم وإذا لاحظنا ان التقليد في الاسلام منهي عنه وجب على كل فرد أن يبحث في أحوال الرجال و يتفهم ويمحص كل ما وصله في الاحاديث وما يصله بنفسه والا بقي دينه ناقصا . فأي حرج في الدين أكبر من هذا وخصوصا كلما طال العهد على رجال الاسانيد و بعد مكانهم وزمنهم عنا . والله يقول (ما جعل عليكم في الدين من حرج) (لها بقية)

مناظرة عالمين (*)

﴿ في مجلس المأمون ﴾

إذا أردنا من القرآن كلام الله كان قديما لانه يكون اذ ذاك عبارة عن صفة من صفاته تعالى وهي قديمة ، وان أريد بالقرآن ما عدا الصفة القديمة من صوت مسموع أو مصحف مصنوع كان حادثا

هذه المسئلة على بساطتها وضوحها كان لها في تاريخ الاسلام الديني اسوأ الاثر وآل الامر فيها الى أن يسجن مثل الامام أحمد بن حنبل ويقيد ويعذب ، وكان سواد الامة ومعظم علمائها من الفريق القائل بان القرآن قديم . اما الفريق القائل بالحدوث — ويسمى (المعتزلة) — فاتفق له من بعض خلفاء بني العباس من يأخذ بقوله ويحمل الناس عليه ، ومن ثم كانت صولته أشد ، وعامل جبروته انفذ ، وكان من هؤلاء الخلفاء الذين أيدوا القول بالحدوث المأمون بن الرشيد ، فكان هذا الخليفة على ما فيه من علم صحيح وعقل رجيح يشدد على الناس وينكل بهم إن قالوا بما يخالف رأيه ، فكان الناس لعهده يستترون في بيوتهم ، ويتقطعون عن شهود الجمعة والجماعة ، ويتسللون من بلد الى بلاد خشية الفتنة والارهاق ، وقد منع الفقهاء والمحدثون من تعهود للناس في المسجد الجامع الواقع في الجانب الشرقي من الرصافة وفي غيره من المواضع ، الا بشراً المريسي ومحمد بن الجهم ومن رأى رأيهما من علماء المعتزلة القائلين بحدوث القرآن ، وكل من اظهر مخالفتهم قيد اليهم ، وعرض قوله عليهم ، فان أصر قتل سرا أو جهرا أو نفي من الارض . وكان كثيرون من العلماء يوافقونهم في الظاهر خوفا على أنفسهم وفي الباطن يرأون الى الله مما أعلنوه .

شاع أمر هذه المحنة في بغداد وجعل أهل الامصار الاسلامية يتداولون خبرها

(*) لصديقنا عبد القادر افندي المغربي الطرابلسي نزيل مصر

ويتعوذون بالله من شرها : قال عبد العزيز بن يحيى الكناني (الذي نلخص هذه المقالة من رسالة له ألفها فيما حدث له) اتصل بي وأنا بمكة ما ابتلي به الناس في بغداد وكيف استطال عليهم بشر المريسي ولبّس على أمير المؤمنين وعامة أوليائه، فأطال همي هذا الخبر، وأطار نومي، فخرجت من بلدي متوجها إلى ربي واسأله سلامتي حتى قدمت بغداد فشاهدت من غلظ الأمر وامتداده أضعاف ما كان يصل إليّ.

ثم إن عبد العزيز جعل بعد وصوله الى بغداد يبتهل الى الله أن يسدده، ويثبت عزيمته، ويرشده الى طريقة يتوصل بها الى قهر تلك الفئة الجائرة وكف عاديتها، فبداله ان يخفي أمره عن الناس جميعا خشية أن يقتل قبل ان يسمع كلامه، ثم ارتأى أخيرا أن يقف بعد صلاة الجمعة في جامع الرصافة ويرفع صوته بمخالفة أهل البدعة وتسفيه آرائهم وطلب محاجتهم، فإن إشهاره نفسه على هذه الصورة يحول دون اغتياله قبل مناظرته، واستماع قوله، ولم يكد ينتهي الامام من صلاة الجمعة في ذلك الجامع حتى سمع الناس من الصف الاول حيال القبلة والمنبر صوت رجل مكيّ الزي واقف على قدميه ينادي بأعلى صوته ابنه الصغير الذي اقامه قبالته عند الاسطوانة الأخرى :

الاب — ماتقول في القرآن يابني ؟

الابن — كلام الله منزل غير مخلوق ياأبتي

فارتاع الناس لهذه المحاورة وهرعوا على وجوههم خارجين من المسجد، وأسرعت الشرطة فاحتملوا عبد العزيز وابنه الى رئيسهم «رئيس البوليس اذ ذاك عمرو بن مسعدة» وكان جاء ليصلي الجمعة في جامع الرصافة

الرئيس — أمجنون أنت ؟

عبد العزيز — لا

الرئيس — موسوس ؟

عبد العزيز — لا

الرئيس — معتوه ؟

عبد العزيز — لا والحمد لله، واني لصحيح العقل جيد الفهم ثابت المعرفة

الرئيس — فمظلوم انت ؟

عبد العزيز — لا

الرئيس لاصحابه — مروا بهما سحبا الى منزلي .

فاحتملهما الشرطة وجعلوا يعدون بهما سحبا شديدا ، وايديهما في أيديهم يمنة ويسرة ، حتى صاروا بهما الى منزل الرئيس على هذه الحالة الفليظة ، فادخلا عليه وهو جالس في صحن داره على كرسي من حديد وشواره عليه (١)

الرئيس — من أين أنت ؟

عبد العزيز — من أهل مكة

الرئيس — ماحملك على ماصنعت بنفسك ؟

عبد العزيز — طلبت القربة الى الله ورجاء الزلفى لديه

الرئيس — هلا فعلت ذلك سرا من غير نداء ولا اظهار المخالفة لامير المؤمنين ؟! ولكن أردت الشهرة والرياء والسؤدد لتأخذ أموال الناس

عبد العزيز — ماأردت الا الوصول الى أمير المؤمنين والمناظرة بين يديه لاغير ذلك .

الرئيس — أو تفعل ذلك ؟

عبد العزيز — نعم ولذلك قصدت ، وبلغت بنفسي ماترى ، وتغريري بنفسي وسلوكي البراري أنا وولدي رجاء تأدية حق الله فيما استودعني من العلم والفهم في كتابه ، وما أخذه علي وعلى العلماء من البيان (٢)

الرئيس — إن كنت انما جعلت هذا سببا لغيره من المطالب اذا وصلت الى امير المؤمنين فقد حل دمك .

عبد العزيز — إن تكلمت في شيء غير هذا ، وجعلت هذا ذريعة اليه ، فدمي حلال

فوثب الرئيس وقال لاعوانه أخرجوه بين يدي ، فاخرجوني أنا وابني بين يديه وهو راكب على فرسه ، وجعلوا يعدون بنا على وجوهنا ، وأيدينا في أيديهم ، حتى وصلنا

(١) الشوار : اللباس والزينة وكأنه يريد به هنا الملابس ذات الطراز الخاصة برؤساء الشرطة والجند في ذلك العصر (٢) فليعتبر علماء هذا الزمان

الى دار الخلافة في الجانب الشرقي من بغداد. فدخل الرئيس على المأمون، وبقيت أناوابي في الدهليز واقفين على أرجلنا، فأطال ثم خرج الى حجرة له وأمر بي:

الرئيس — اخبرت أمير المؤمنين بخبرك وما فعلت وما سألته من الجمع بينك وبين مخالفيك للمناظرة بين يديه، وقد أمر أطال الله بقاءه وأعلى أمره باجابتك الى ما سألت، وأمر بجمع المناظرين على هذه المقالة الى مجلسه أعلاه الله في يوم الاثنين الادنى، ويحضر هو بنفسه معهم ليناظروا بين يديه، ويكون هو الحكم بينكم

عبد العزيز — أطال الله بقاء مولانا أمير المؤمنين وأيد دولته

الرئيس — أعطنا كفيلا بنفسك حتى نحضر معهم يوم الاثنين وليس بنا حاجة الى حبسك

عبد العزيز — أدام الله عزك، انا رجل غريب، ولست أعرف في هذا البلد أحدا، ولا يعرفني من أهلها أحد، فمن أين لي من يكفل بي، خاصة مع اظهاري مقالتي، لو كان الخلق يعرفونني حق معرفتي لتبرأوا مني وهربوا من قربي وأنكروني.

الرئيس — توكل بك من يكون معك حتى يحضرك في ذلك اليوم، وتنصرف فتصلح من شأنك، وتتفكر في أمرك، فلعلك ترجع عن غيك، وتتوب من فعلك، فيصفح أمير المؤمنين عنك

عبد العزيز — ذلك اليك أعزك الله فافعل ما رأيت. ولما جاءت غداة يوم الاثنين حمل عبد العزيز مكرما الى دار الخلافة، وأدخل الى حجرة رئيس الشرطة فسأله هذا عما اذا كان لم يزل مقيما على رأيه ثم نصحه وحذره وخامة عاقبة مخالفة أمير المؤمنين فيما اذا ظهر عليه مناظروه، وانه ليس حينئذ إلا السيف، وانه إن ندم ورجع عن مقالته سأل أمير المؤمنين الصفح عنه، وضمن له جائزة وقضاء ماله من حاجة، فأجابه عبد العزيز بأنه ما خرج من بلده الا لرجاء إقامة الحق.

الرئيس — وقد وقف على رجليه — قد حرصت على خلاصك جهدي وانت حريص على سفك دمك جهدك

عبد العزيز — معونة الله أعظم وألطف من أن ينساني، وعدل أمير المؤمنين أوسع من أن [illegible]

وكان قد صدر الامر إلى بني هاشم أن يركبوا ، والى القضاة والفقهاء الموافقين لهم على مذهبهم وسائر المتكلمين والمناظرين أن يحضروا ، والقواد والاولياء (١) فركب القوم بالسلاح لإحداث الهيبة في نفس عبد العزيز وسائر الناس الذين يوشك ان يفسدهم ، قال عبد العزيز ثم أذن لي فلم أزل أنقل من دهليز الى دهليز حتى صرت الى الحاجب صاحب الستر الذي على باب الصحن (٢)

الحاجب — إن كنت تحتاج إلى تجديد الوضوء ؟

عبد العزيز — مالي إلى ذلك حاجة

الحاجب — إركع ركعتين

عبد العزيز — ركع أربع ركعات ودعا الله

الحاجب — استخر الله وقم فادخل

فأزاح الستر وأخذ الرجال (التشريفاتية) بيدي وعضدي وجعل اقوام أيديهم في ظهري وعلى رقبتي وطفقوا يعدون بي . ونظرني المأمون وأنا أسمع صوتا « خلوا عنه » وكثر الضجيج من الحجاب والقواد بمثل ذلك ، فخلوا عني ، وقد كاد يتغير عقلي من شدة الجزع ، وعظيم ما رأيت في ذلك الصحن من السلاح ، وهو ملأ الصحن وكنت قليل الخبرة بدار أمير المؤمنين ، ما رأيتها قبل ذلك ولا دخلتها

قال عبد العزيز : فلما أوصلني الحجاب الى باب الديوان وقفت فسمعت المأمون يقول ادخلوه قريبه ، فلما دخلت من باب الديوان وقعت عيني عليه ، وقبل ذلك لم أنتبه اليه لما كان على باب الديوان من الحجاب والقواد ، فقلت السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، فقال وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، ثم قال أدن مني ، فدنوت منه ، ثم جعل يقول أدن مني ، فدنوت منه ، ثم جعل يقول أدن ، وأدنو ، ويكرر ذلك وأنا أدنو خطوة خطوة ، حتى صرت إلى الموضع الذي يجلس فيه المتناظرون ويسمع كلامهم ، والحاجب معي يقدمني ، فلما انتهيت إلى الموضع قال لي المأمون اجلس فجلست

---

(١) يريدهم المؤيدين للخلافة لا أهل الباطن كما هو اصطلاح أهل العصور المتأخرة (٢) أي صحن دار الخلافة وهذا الحاجب بمثابة سر تشريفاتي اليوم

وسمعت رجلا من جلسائه يقول — وقد دخلت الديوان — يا أمير المؤمنين يكفيك من كلام هذا قبح وجهه، فوالله ما رأيت خلقا لله أقبح وجها منه، فسمعت قوله هذا وفهمته، وما رأيت شخصه، على ما كنت فيه من الجزع والرعدة .

قال عبد العزيز : وتبين لامير المؤمنين ما أنا فيه من الجزع، وما قد نزل بي من الخوف، فجعل ينظر في وانا ارتعد خوفا وانتفض، واحب ان يؤنسني، ويسكن روعتي فطفق يكثر كلام جلسائه، ويكلم عمرو بن مسعدة (رئيس الشرطة) ويتكلم باشياء كثيرة مما لا يحتاج اليها، يريد بذلك كله إيناسي، وجعل يطيل النظر الى الايوان ويدير نظره فيه، فوقعت عيناه على موضع من نقش الجص قد انتفخ . فقال ياعمرو ماترى هذا النقش في الجص قد انتفخ وسيقع فبادر في قلعه وعمله . فقال عمرو قطع الله يد صانعه فانه قد استحق العقوبة على عمله هذا .

ثم أقبل المأمون على عبد العزيز يسائله :

المأمون — ما الاسم ؟

عبد العزيز — عبد العزيز

المأمون — ابن من ؟

عبد العزيز — ابن يحيى بن مسلم

المأمون — ابن من ؟ (يسأله عن جده)

عبد العزيز — ابن ميمون الكناني

المأمون — أوأنت من كنانة ؟

عبد العزيز — نعم يا أمير المؤمنين

ثم سكت المأمون هنيهة لا يتكلم

المأمون — من أين الرجل ؟

عبد العزيز — من الحجاز

المأمون — ومن أي الحجاز ؟

عبد العزيز — من مكة

المأمون — ومن تعرف من أهل مكة ؟

عبد العزيز — ياأمير المؤمنين قلّ من بها من أهلها الا وأنا أعرفه . الا رجل ضوى (لجأ) ، اليها أو من جاور بها ، فاني لا أعرفه .

المأمون — اتعرف فلانا وفلانا (وجعل يعدد جماعة من بني هاشم)

عبد العزيز — نعم ياأمير المؤمنين أعرفهم

المأمون — وأولادهم وانسابهم . (وذكر شيئا من ذلك)

عبد العزيز — نعم . (وأجابه عما سأل)

قال عبد العزيز : وانما يريد أمير المؤمنين ايناسي ، و بسطي للكلام وتسكين روعتي وجزعي ، فذهب عني ما كنت فيه ، وما لحقني من الجزع ، وجاءت المعونة من الله عز وجل ، فقوي مناظري ، واشتد قلبي ، واجتمع فهمي ، ثم اقبل المأمون عليّ وقال ياعبد العزيز انه قد اتصل بي ما كان منك ، وقيامك في المسجد الجامع ، وقولك ان القرآن كلام الله الخ . بحضرة الخلق وعلى رؤوس الخلائق ، وما كان من مسئلتك بذلك من الجمع بينك و بين مخالفيك على القول لتناظرهم في مجلسي ، والاستماع منك ومنهم ، وقد جمعت المخالفين لك لتناظرهم بين يدي ، وأكون أنا الحاكم بينكم فان تتبين الحجة لك عليهم والحق معك اتبعناك ، وان تكن الحجة لهم عليك والحق معهم عاقبناك ، وان استقلت اقلناك .

ثم اقبل على بشر المريسي وقال : يابشر قم الى عبد العزيز فناظره وانصفه ، فوثب بشر من موضعه كالاسد يثب الى الفريسة فرحا ، فانحط عليّ فوضع ركبتيه وفخذه الايسر على فخذي الايمن فكاد أن يحطمه ، وغمز عليّ بقوته كلها ، فقلت مهلا فان أمير المؤمنين لم يأمرك بقتلي ولا بظلمي ، وانما أمرك بمناظرتي وانصافي ، فصاح به المأمون وقال تنح عنه ، وكرر ذلك عليه حتى ابعده مني .

ثم اقبل عليّ المأمون وقال : ياعبد العزيز ناظره على ماتريد ، واحتج عليه ، واحتج عليك ، وتسأله و يسألك ، وتناصفني في كلامكما ، تحفظا الفاظكما ، فاني مستمع عليكما فتحفظ الفاظكما . فقلت السمع والطاعة لامير المؤمنين ، ولكن عبد العزيز لم يرد ان يشرع في مناظرة خصمه مالم ينتقم من ذلك البغيض الذي عابه لامير المؤمنين بقبح وجهه ، وتشويه خلقه ، وملخص ماقال في هذا الصدد : ان يوسف صلوات الله عليه الذي هو احسن البشر وجها ، كان حسنه و بالا عليه ، فظلم وسجن رجاء تغيير حلية وجهه

وان يذهب السجن بحسنه ، ولما وقف الملك على سعة علمه ، وحسن عبارته في تعبير الرؤيا ، صيره على خزائن الارض ، واعتزل الامور وصار كأنه من تحت يده ، وليست هذه المنزلة إلا بعلمه وكلامه ، لا بجماله وحسن وجهه ، وقال اجعلني على خزائن الارض اني حفيظ عليم ، ولم يقل إني حسن جميل ، فوالله ما أبالي يا أمير المؤمنين او كان وجهي أقبح مما هو معي ، فقد أعطاني الله وله الحمد من فهم كتابه ، والعلم بتنزيله . فقال المأمون وأي شيء أردت بهذا القول ؟ وما الذي دعاك اليه ؟ فقلت اني سمعت بعض من هنا يقول يا أمير المؤمنين « يكفيك من كلام هذا قبح وجهه » فأي عيب يلحقني في صنعة ربي عز وجل ؟ فتبسم المأمون حتى وضع يده على فيه ، فقلت يا أمير المؤمنين : قد رأيتك تنظر هذا النقش في الحائط ، وتنكر انتناخ الجص ، وسمعت عمرا (رئيس الشرطة) يعيب الصانع ، ولا يعيب الجص ، فقال المأمون العيب لا على الشيء المصنوع ، انما العيب على صانعه . فقلت صدقت يا أمير المؤمنين وقلت الحق . فهذا (يعني جليس السوء) يعيب ربي لم خلقني قبيحا . فازداد المأمون تبسما حتى ظهر ذلك عليه ، ثم قال يا عبد العزيز : ناظر صاحبك فقد طال المجلس بغير مناظرة . ثم أخذا في المناظرة . ولا يمكن ان تقصى مسائل المناظرة او تلخصها لما ان المقام لا يحتمل ذلك ، وانما نشير الى بعض ما كان يجري بين المتناظرين مما فيه دلالة على أخلاق العلماء إذ ذاك ، وعلى كرم أخلاق المأمون : من ذلك ان بشرا سأل عبد العزيز سؤالا ، وكلفه جوابه ، ووافقه المأمون قائلا هذا يلزمك يا عبد العزيز فعند ذلك جعل ابن الجهم وغيره من شيعة بشر يضجون ويقولون ظهر أمر الله وهم كارهون ، جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا ، وطمعوا في قتل عبد العزيز ، وجثا بشر على ركبتيه ، وجعل يقول اقر والله يا أمير المؤمنين بخلق القرآن وأمسك عبد العزيز فلم يتكلم ، فقال له المأمون مالك لا تتكلم يا عبد العزيز ؟ فقال سألني بشر وهو المناظر لي ، فضجيج هؤلاء ايش هو ؟ وأنا لم أنقطع ، ولم أعجز عن الجواب ، وليست أتكلم ما لم يسكتوا ، فصاح المأمون لمحمد بن الجهم وغيره اسكتوا ، فسكتوا ، واقبل علي وقال تكلم يا عبد العزيز واحتج لنفسك ، فتكلم وأخذا في المناظرة

قال عبد العزيز : وجعل بشر يصيح ويقول لو تركته يا أمير المؤمنين يتكلم لجاء بألف شيء فقلت يا أمير المؤمنين قد ذهبت بالحجج ورضي بشر وأصحابه بالضجيج والترويج بالباطل وقطع المجلس وطلب الخلاص ولا خلاص من الله حتى يظهر دينه ويقمع الباطل بالحق فيزهقه، فصاح المأمون ببشر أقبل على صاحبك ودع هذا الضجيج وكان المأمون قد قعد منا مقعد الحاكم من الخصوم .

قال عبد العزيز : وكثر تبسم المأمون من قولي حتى غطى يده على فيه واطرق يكتب في الارض بيده على السرير

ومما استدل به بشر على مذهبه قوله تعالى خالق كل شيء والقرآن شيء من تلك الاشياء المخلوقة .

فأجاب عبد العزيز بما خلاصته : قال تعالى « ويحذركم الله نفسه » فلله نفس وقال تعالى « كل نفس ذائقة الموت » فتقول يا بشر ان نفس الله داخلة في هذه النفوس؟ فصاح المأمون باعلا صوته وكان جهوري الصوت معاذ الله معاذ الله .

هذا مثال مما كان يجري بين المتناظرين في حضرة المأمون ولم يزل عبد العزيز يدحض حجج خصمه ويكسر أقواله بالكتاب والسنة والقياس حتى قال المأمون له أحسنت يا عبد العزيز ثم أمر بعشرة آلاف درهم فحملت بين يديه وانصرف من مجلسه على أحسن حال وأجملها

قال عبد العزيز فسر المسلمون جميعا بما وهبه الله لهم من اظهار الحق وقمع الباطل وانكشف عن قلوبهم ما كان اكتنفها من الغم والحزن وجعل الناس يجيئون الي أفواجا حتى أغلقت بابي واحتجبت عنهم خوفا على نفسي وعليهم من مكروه يلحقنا ، فقالوا لا بد أن تملي علينا ما جرى لنعرفه ونتعلمه فهبت ذلك وتخوفت سوء عاقبته ، فلما ألحوا علي قلت أنا أذكر لكم بعض ماجرى مما لا يجوز علي فيه شيء ولا حجر في ذكره فرضوا فأمليت عليهم أوراقا مختصرة لاقطعهم بها عن نفسي وعن ملازمة بابي